المشرق
بيروت

السنة الحادية والثلاثون — تشرين الاول ١٩٣٣

الحياة في بيروت

على عهد الصليبين

بقلم الاب لامنس اليسوعي

١

في الثالث عشر من شهر ايار سنة ١١١٠ ، تقدم بقدوين الاول ، اخو غودفرويد دي بويون ، وثاني ملك لاتيني على اورشليم ، فانتزع من ايدي فاطمي مصر مدينة بيروت – المدعوّة اذ ذاك « باروت » (Baruth) – بعد حصار دام ثلاثة اشهر . وكانت غابة الصنوبر او « صنوبر باروت » ، كما يقول المؤرخ غليوم الصوري ، قد وفّرت الخشب لتجهيز آلات الحرب المستعملة في الحصار . – واذاً فان الغابة اقدم من عصر الامير فخر الدين !

وان تكن بيروت قد قاومت مدّة ثلاثة اشهر ، فان ذلك بفضل السفن

المصرية التي كانت تأتيها بالمؤن والذخائر . على ان السفائن الجنوية لم تلبث ان وصلت امام بيروت . وكان عددها اربعين سفينة ، فضيقت الحصار ، ومكنت بقدومها من الاسراع في المعارك برًّا وبحرًا . وكانت المعركة الفاصلة شديدة الهول ، كما يُستخرج من رواية المؤرخ القلانسي ، القائل ان الناس لا يذكرون ان الفرنجة شهدوا معركة تشبهها شدة وهولًا ، حتى انهم قبل نهاية النهار دخلوا المدينة بحدّ السيف . وكان من ضحايا تلك الموقعة قائد العمارة المصرية.

وبعد مدة لا تبلغ القرنين أُجبرت «باروت الصليبيين» على ان تُسلم صلحاً لمماليك مصر ، سادة البلاد السورية آنئذٍ . وكان ذلك في ٢١ تموز ١٢٩١ . وهو صلح لم يقم الفاتح بمراعاة شروطه ، بل غدر بمن دخل في الامان اشأم غدر . وهاك ما يقوله في تفصيل ذلك صالح بن يحيى ، مؤرخ بيروت . وسنعود كثيرًا الى تاريخه في هذا البحث . قال ذاكرًا سنجر احد امراء المماليك القادم الى بيروت ، واستقبال الحاكم الفرنجي اه ، وذلك بعد الصلح والامان :

« فلما وصل سنجر الشجاعي الى بيروت تلقاه صاحبها وخيالته احسن ملتقى . ونزل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحريمهم وانقالهم الى القلعة ففعلوا وظنوا انه يفعل ذلك شفقةً عليهم . فلما صاروا في القلعة قبض على الرجال وقيّدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الاحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وستمائة (١٢٩١) . . . ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء . ثم جهّز اهلها الى دمشق وانفذهم منها الى مصر باجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء . ولما وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال : اماني باقٍ عليكم . وخيّرهم بين العود الى بيروت او التوجّه الى قبرس باجمعهم . »[1] وكانت قبرس اذ ذاك تؤلف مملكة اللوزينيانيين ، فيجتمع فيها من تبقى من رجال الصليبيين.

وهكذا اضمحلت ، بعد ان ازدهرت مدة ١٧٠ سنة ، « إمارة باروت » ، الدرّة الثالية في تاج اورشليم اللاتيني . وقد كانت مدينةً فرنجية ازهرت فيها

١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت (طبعة شيخو ١٨٩٨) ص ٤٢–٤٤

حياة اوربة وتقاليدها ، مدينةً كانت تجمع الشعوب المختلفة ، على انها ظلّت فرنسوية بلغتها ، وعاداتها ، ومؤسساتها ، كما انها ظلّت فرنسوية بالاسر التي حكمتها . وهاك اسماء هذه الاسر المعروفة « بسادة باروت » (*Sires de Baruth*) : فهناك دي كّين (de Guines) ، وبريسبار (Brisebarre) ، ومونفور (Montford) وكلّها قريبة او مصاهرة لاشهر الاسر الفرنسوية من ذوي الاقطاع في الشرق الادنى كآل لوزينيان (Lusignan) ، ومونتكو (Montaigu) ، ومونبليار (Montbéliard) ، ودامپير (Dampierre) ، ودي لاروش (de la Roche) . وكانت اللغة المنقوشة على نقودهم فرنسوية او لاتينية . وقد اشترك احد افراد هذه الاسر بتصنيف قانون المحكمة اللاتينية المعروف « بقواعد اورشليم » « *Les Assises de Jérusalem* » واكثر الصليبيين الذين دخلوها اولّا كانوا ممن رافقوا الملك الفاتح في حروبه ، على مثال دي كّين (Foulques de Guines) امير باروت الاول ، وعلى مثال بتدرين اسقفها اللاتيني الاول ، واصلهما من كونتية بولونية . اما سائر الامراء والصليبيين فكانوا من المقاطعات الواقعة على الحدود بين فرنسة وبلجيكة . واذاً فهي مدنية فرنسوية خالصة تلك التي ازدهرت ، على مدة نحو قرنين ، في هذه النقطة من فنيقية ، وفي ملحقاتها من جبل لبنان . ويعنيني اليوم ان اجتهد في تبيان ما امتازت به من شخصية وطرافة ، مذكّرًا الناس بحياة باروت الفرنجية وعاداتها .

***

ولنبدأ بذكر حدود تلك الامارة . كان يحدّها من جهة الشمال نهر الكلب . ومن جهة الجنوب نهر الدامور . اما في الشرق فانها كانت تتصل بقمم لبنان . وكانت امارة جبله (Giblet) ، اي جبيل ، المتعلقة بكونتية طرابلس تتصل بها في الشمال . وفي الجنوب كانت اراضيها متصلة باراضي بارونية ساجيت او سايت (Sagette ou Sayette) وهي صيدا الحالية . يفصل بين المنطقتين نهر الدامور ، كما قدّمنا ، وهو اسم لثته الفرنجة ثم حرّفوه على طريقة عامية

معروفة في التحريف اللغوي فولّدوا منه اسم « *flumen amoris* » اي « نهر الحب » .

اما في الجبل فكانت مناطق قضاء المتن وقضاء الشرف الشمالي تخضع لامير بارورت . وكان سكان تلك المناطق من المسلمين المنشقّين ، تابعي الشيع ذات النظام السرّي . وقد كانوا يعيشون في حرية فوضوية ، متشمين باستقلال يكاد يكون ناجزًا ، حتى ان السلاطين والخلفاء لم يتوصلوا يوماً الى اخضاعهم . يشهد بذلك انهم ، بعد انصراف الصليبيين ، اجبروا ملوك الاسلام على ان يسيّروا عليهم جيشاً بلغ خمسين الف مقاتل .

أما على عهد الصليبيين فان دهاء السياسة الفرنجية عمل على اقرار هذه الشعوب الحريمة المياج ، فوطّد الامن في مناطق الجبل ، تاركاً لنا عبرة تُعتبر ومثلًا يجب ان يُقتدى به . وما ذلك الا لان اولئك السكان شعروا بقوة الفرنجة الفائقة[1] مقرونةً بالاستقامة . كان الدروز والمتاولة يحترمون الصليبيين لانهم كانوا يرونهم شجعاناً وامناء لا يخلفون الوعد ولا ينكثون بالعهد . على ان هذا الاحترام لم يمنع سكان الجبل ، بعض الاحيان ، من التلاعب وخداع الصليبيين ، شأنهم مع سلاطين دمشق والقاهرة ، قبل ذاك العهد . ولا يخفى ان الخداع سلاح الضعيف ومرجع سياسته ايضاً . ولكن الصليبيين كانوا واقفين على هذه الاساليب ، فكانوا يقمعون تلك الحركات بالشدة الصارمة احياناً ، ويغضون عنها الطرف احياناً اخرى . ومهما يكن من امر فان لنا بقول الرحالة المسلم ابن جبير الاندلسي ، وهو من معاصري هذه الحوادث ، شهادةً على حسن سياسة الصليبيين وتساهلهم مع مسلمي سورية قال :

« ورحلنا من تبنين دمّرها الله[2] سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلّها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة . . . وكل ما بايدي الافرنج من المدن بساحل

---

١) اطلب تأثير شجاعة الفرنجة في أسامة ابن منقذ و كتاب الاعتبار ، ص ٤٨ ، ٩٧ ، ١٠١

٢) لانها بيد الفرنجة . وكذلك دعاؤه على جميع مدن الصليبيين .

الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع . وقد أشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يُبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعمّالهم لانهم على ضدّ احوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي جورَ صنفه المالك له ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله .» [1]

عندما دخل الصليبيون بيروت كان فيها عدد لا يُستهان به من المسيحيين . وكانوا باكثريتهم من الملكيين واليعاقبة . ثم لحقهم عدد من الموارنة . ولم يلبث هؤلاء المسيحيون ، ولاسيا اليعاقبة والموارنة ، ان اتحدوا بالقادمين من اوربة ، وسرعان ما امتزجوا بهم وراحوا يزيدون عدد الاسر الفرنجية . وكان منهم اكثر الاطباء والصيادلة في الجيوش والمعسكرات الصليبية . وكذلك في الدوائر الادارية كانت اعمال الترجمة جميعها بيدهم . حتى ألفوا تلك الفئة الفرنجية ـ السورية من الموظفين التي اعجبت ابن جبير بترتيبها وحسن معاملتها . اما المسلمون ففقدوا طبعاً اهميتهم السابقة واضطروا الى قبول الشروط التي كانوا قد اجبروا المسيحيين على قبولها في ما مضى . على انها كانت اخفّ وطأةً من شروط الفتح العربي بكثير . من ذلك ان شهادة المسلم وشهادة اليهودي كانتا مقبولتين في المحكمة حتى لو شهدا على الفرنجي . وهو تساهل لم تطلعنا على مثله الشريعة القرآنية .

على ان كثيراً من المسلمين فضّلوا المهاجرة من بيروت . حتى اصبح عددهم في المدينة ضئيلاً جداً ، ولم يكن لهم جامع عندما دخلها المماليك [2] .

ايّ اتساع وايّة اهمية كانت لبيروت في اوائل القرن الثاني عشر ؟ سؤال يصعب الجواب عنه بدقة وتفصيل . فانه منذ الزلزال الشديد الذي حصل سنة ٥٥٥ ودمّر جامعة بيروت الحقوقية الشهيرة [3] ، واهلك ٣٠,٠٠٠ من

---

١) رحلة ابن جبير (طبعة de Goeje) ص ٢٠١-٢٠٢-٢٠٣

٢) صالح بن يحيى : التاريخ المذكور ، ص ٥٨

٣) اطلب محاضرتنا في « الحياة الجامعية في بيروت على عهد الرومان والبيزنطيين » في « مجلة العالم المصري » (ايلول ١٩٢١) *Revue du Monde Egyptien* (Sept. 1921)

البيروتيين، لا نرى ما يشير الى ان المدينة عادت الى ازدهارها السابق. فانها على عهد العرب كانت خاملة الذكر. وان ذكرها الوليد الثاني، الخليفة الاموي الشاعر، فانما يذكرها ليشيد بذكر خمرها وهو بالحقيقة خمر لبنان الذهبي. ثم، اذا استثنينا الامام الاوزاعي ومكحولاً، لا نرى ذكراً لاحد من مشاهير مسلمي بيروت في كتب مؤرخي العرب لذلك العهد. اما من حيث التجارة فان عكا وصور وطرابلس كانت قد نازعتها الاسبقية وفازت بها حتى انها كادت تحتكر تصدير حاصلات دمشق وما اليها من مدن الداخلية. على ان بيروت كانت مدينةً محصّنة قوية الاسوار. يدلّ على ذلك ما ذكرناه عن حصار بغدوين الاول لها من طول المدّة وشدّة العراك. مما يفرض ضخامة الاسوار التي زادها الصليبيون قوّة ومناعةً ايضاً، فجعلوا من المدينة «مركز حربٍ حقيقياً حتى اصبحت اقوى مدن الساحل وافضلها واحسنها ازدهاراً.» هذا بشهادة المؤرخين المسلمين[1].

وقد نشر الكونت دو منيل دو بويسون (Comte du Mesnil du Buisson) في مجلة «سيريا»[2] بحثاً دقيقاً نفيساً في اسوار بيروت القديمة. وكان غليوم ري (G. Rey) قد خصّ، منذ السنة ١٨٧١، درساً مهماً «بآثار الصليبيين الحربية في سورية وجزيرة قبرص». ولا اتردّد هنا في الاقرار بقلة صلاحيتي للخوض في مثل هذه الموضوعات. على انني اودّ ان اضيف الى الموضوع بعض وثائق، وان اعيد النظر في بعض نصوص اعتقد انها لم تُدرس الدرس الكافي:

يفرض ري في كتابه «مستعمرات الفرنجة في سورية»[3] «لبارون الصليبيين» مساحة ٨٥٠ متراً طولاً في نحو ٦٠٠ متر عرضاً». ثم يأتي دومنيل فينتقص هذه المساحة الى نحو نصفها. وهي مساحة قد توافق، في ما اظنّ، بيروت المماليك او بيروت فخر الدين والجزّار — ولم يكن فيها اذ ذاك الا

---

١) اطلب مجموعة مؤرخي الصليبيين *Historiens Orientaux des Croisades* I, 692

٢) *Syria*, II, 235 etc.

٣) G. Rey, *Colonies franques de Syrie*, p. 321

ستة آلاف ساكن — لا بيروت الصليبيين . فان هـذه كانت اوسع واكبر ، كما يُستخرج من قول الرحالة البلجيكي كيلبر دي لانوى (Ghilhebert de Lannoy) اذ زارها في القرن الخامس عشر فقال : « كانت ، في مـا سبق ، على عهد الصليبيين ، مدينةً كبيرةً مقفلة » . ثم ان مـا كان يجعل اسوار بيروت فخر الدين والجزّار عرضـةً لا لمرمى المدافع فحسب ، بل هـدفاً للمجانيق ، هو وجود الاكمتين المرتفعتين عن المدينة من خارج تلك الاسوار . وهما الاكمة التي ترتفع عليها السراي الكبرى اليوم — وعلوّهـا ٤٢ متراً عن سطح البحر — والاكمة الشرقية التي كانت فيها جبّانـة المسلمين القديمـة وراء السراي الصغرى . اما ان يكون الصليبيون بلغ بهم الاهمال وعدم التبصّر الى ان يبنوا قلعتهم الضخمة ، التي طالمـا اعجب بها المسلمون ، عند اقدام هاتين الاكمتين ، فهو ما لا يمكنني التسليم به ، الا اذا اطلعت على برهانٍ قاطع .

ان الفرنجة كانوا ، مع الرومان ، اوفر من مرّ بارض سورية جلداً على البناء . ولا شكّ ان بقاءهم مدة قرنين في هذه البلاد ، على ذاك البعد الشاسع عن موطنهم ، مدينٌ لشجاعتهم اولًا ، وكذلـك لمقدرة مهندسيهم ودهـاء بُناتهم . نتحقق ذلك ايضاً اذا اعتبرنا عصرهم المختلف عن عصرنا في ما خصّ العادات الحربية ، اذ كانت فيه الاهمية الكبرى للدفاع اكثر منها للهجوم . وان عظمة اساليب التحصين البادية في قلاعهم واسوارهم اثّرت التأثير الشديد في المسلمين المتحصرين عليهم حتى انّ هؤلاء لم يروا طريقـةً افضل ولا اسلوباً اوفق، لكي يمنعوا اعداءهم من العودة، من ان يخربوا الاسوار ويهدموا الحصون التي كان قد انشأها الصليبيون على الساحل . على ان هذا الهدم ، لحسن الحظ ، لم يبلغ مداه في جميع الانحاء . وليس من السهل ان يخرب الانسان ، كما يخرب قصراً من ورق اللعب ، ابراجاً من الحجر الصلب المتماسك البناء تبلغ جدرانها الثلاثة والاربعة امتار سماكةً . وكان من مفعول اسوار الصليبيين ، في العصور المتأخرة ، ان دهاء بونابرت حبط لدى آثارها الباقية حول مدينة عكا ، ممـا لم تقوَ على التأثير فيه اعمال الحفر ولا كرات المدافع .

وكان من اول اهتمام امراء الصليبيين ، في المدن البحرية ، ان يبنوا قلعةً

حصينة يزينونها بكل ما اوتوا من مهارة في البناء الحربي فتقيهم اشدّ الهجمات حتى اذا تمّ لهم ذلك كانت مناعة اسوار المدن ثنوية في نظرهم . وقد شهد التاريخ على ان اكثر حصونهم في سورية قاومت كل الهجمات . ولم يكن رجالها يسلّمون في الغالب او يتركون الموقع الا لنفاد المؤونة والذخيرة ..

وكانوا يفضلون لبناء حصونهم البحرية رأساً متقدماً ، او مرتفعاً صخرياً ، او صخرةً في وسط البحر كما في صور ، وصيدا ، وعتليت . واذا لم يوفقوا الى ذلك كانوا ينتخبون ، في زاوية الموقع ، اكمةً تتصل بالبرّية . حتى اذا سقطت المدينة لجأت حاميتها الى القلعة فحاصرت وامكنها ان تتناول الذخائر والمؤن من الخارج . ولنا الامثلة على هذا النوع من الحصون في اورشليم ، وجبيل ، واللاذقية. ولم نرَ انهم بنوا حصونهم مرةً واحدة في ارض منخفضة عمّا جاورها.

اما في بيروت فنرجّح ان قرب الميناء دفعهم الى تأسيس قلعتهم على مرتفع الجبّانة القديمة ، مفضّلين هذا الموقع على اكمة السراي الكبرى . وقد ذكر هذه القلعة ويلبران دولدنبورغ (Willbrand d'Oldenbourg) سنة ١٢١٢ فقال انها من جهة يحفظها البحر ، ومن الجهة الاخرى تُشرف على هوّة عميقة « *alto rupis precipicio* » . اما هذه « الهوّة » فهي دون شك ما يراه الناظر من ذاك المرتفع المشرف رأساً وعمودياً على الميناء . ولا سبيل الى تخيّل مرتفع غير هذا يوافق « هوّة » الكاتب ، في جهة القلعة ، وهي قائمة في الزاوية الشمالية - الشرقية من مركز المدينة.

اما السور الذي جدّد بناءه فخر الدين ، ثم اتمه الجزّار سنة ١٧٧٣ في بضعة اشهر ، فكان يمرّ في اسفل اكمة السراي الكبرى. وكانت آثاره لا تزال ظاهرة لثلاثين سنة خلت . وقد كان للجزّار ان يكتفي به ، اذ لم يكن لديه من المعدّات ولا من الوقت ما يسمح له ببناء افضل منه ، ولم يكن يرمي الى ابعد من مقاومة امراء لبنان . وليس عندهم من المدافع ما يهدمون به سوره.

اما مهندسو الفرنجة فكانت غايتهم ابعد من هذه . وكانوا يعرفون « ان طرق التحصين لا تمكن من الدفاع عن المناطق الواسعة الّا اذا فقدت قسماً من

مناعتها. »[1] ولهذا سواء أكانوا في اوربة ام في الشرق ، فانهم لم يظهروا قط ميلهم الى الاسوار البعيدة الفسيحة . وعليه فان مساحة «بيروت الصليبيين» تظل ضئيلة ، وان ادخلنا فيها — كما ارى ضرورياً — الاكمة الغربية ومرتفع الجبّانة الشرقي.

وكان من فضل مناعة القلعة وانحصار نطاقها ، انه لما هجم المان فريدريك الثاني على بيروت سنة ١٢٣٢ ، فدخلوا المدينة فجأة ، لجأت الحامية الى القصر الذي تنعته ملاحم القبرصيين (*Les Gestes des Chiprois*) بانه «من اجمل قصور العالم» وبدأ الحصار . فارتقى الالمان المحاصرون المرتفع المدعو شوفر (Chaufor) فاشرفوا على القلعة واخذوا يرمونها بكللهم . اما شوفر هذا فيجعله ري مكان السراي الكبرى . ويقول دومنيل بل يجب ان يكون وراء السراي الصغرى . امّا انا فاظنّ ان الاسم شوفر تحريف «الاشرفية» وأرى ان المحاصرين أخذوا يرمون القلعة من هذه الاكمة . وهو امر ممكن اذ أن فنّ الرماية بالمنجنيق في ذلك العصر كان من التقدم بحيث انه كان يستخدم الادوات القوية ، «فترمي الى مسافة بعيدة ، على خطٍ شلجمي ، كتلاً من الحجارة[2] يبلغ وزن الواحدة منها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلوغراماً.» (ري)

---

١) اطلب Rey, *Architecture militaire*, 180

٢) اطلب امامه ، ص ٨٣

(للبحث صلة)